أثر نهج البلاغة في شعر ناصر خسرو

(ملخص)

تحاول هذه الدراسةُ التوقفَ عند تجليات التأثر بنصوص نهج البلاغة لدى الشاعر الفارسي ناصر خسرو ت (٤٨١هـ / ١٠٨٨م) ، في موضوع الحكمة والأخلاق الذي اشتُهِر به وعُرف لديه ، بوصفه غرضاً أثيراً قلَّ أنْ تخلو قصائدُه منه .

اتخذت الدراسة منهجاً مقارناً يفيد . بطريقةٍ توليفيةٍ . من معطيات المدرستين الفرنسية والأمريكية في الأدب المقارن . فجاءت عنايةُ الدراسة موزعةً . بشكلٍ متوازنٍ نوعاً ما . بين معاينة البعد الخارجي (التاريخي) لعلاقة التأثير والتأثر ما بين طرفي المقارنة ، و هو ما تؤكد المدرسة الفرنسية على دراسته و الكشف عنه في الدراسة المقارنة ، وبين تأمل تجليات العلاقة . المشار إليها . في داخل النصوص ضمن البعد الداخلي (الفني) ، والذي عنيت به المدرسة الأمريكية .

Nahj al balagah impact in Nasir khosro potry

This study attempts to stop at the manifestations of vulnerability texts Nahj the Persian poet Nasir khosro (481 AH / 1088 AD), on the subject of the wisdom and morality made famous by and has known, as the purpose of the darling Say that without him poems.

Taken a comparative study approach is useful in combination of data the French and American schools in comparative literature. Came care study distributed somewhat balanced between preview external dimension (historical) relationship influencing and being influenced by the comparison between the parties, and is what confirms the French school to study it and disclosed in the comparative study, and between hopes manifestations relationship referred to in the inside texts within the internal dimension (Technical), which meant the American school.

أثر نهج البلاغة في شعر ناصر خسرو

م. د.علي مجيد البديري
كلية الآداب / جامعة البصرة

مقدمة :

تحاول هذه الدراسةُ التوقفَ عند تجليات التأثر بنصوص نهج البلاغة لدى الشاعر الفارسي ناصر خسرو ت (٤٨١هـ / ١٠٨٨م) ، في موضوع الحكمة والأخلاق الذي اشتُهِر به وعُرف لديه ، بوصفه غرضاً أثيراً قلَّ أنْ تخلو قصائدُه منه .

وقد اقتضتْ معالجةُ هذا الموضوع التعريفَ بالشاعر ، وبالسياق الثقافي الذي عاش فيه وتأثر بمكوناته بشكلٍ موجزٍ وسريع، فهو شخصيةٌ شديدةُ الصلة بمحيطها ؛ و قد جعل منه هذا الالتصاق بالواقع شاعراً تتجاوز فاعليةُ حضورِهِ مكانَه وعصرَه . لينتقل البحثُ بعد ذلك إلى معاينة ما طرأ على جملة الحكمة ، وهي ترتحلُ من سياق النثر الفني (في نصوص النهج الشريف) إلى سياق الشعر ، حيث تكتسب سماتٍ نوعيةً جديدةً ، ذاتَ طبيعةٍ خاصةٍ. على أنَّ هذا الانتقال للحكمة لم يتم بطريقةٍ مقطوعةِ الصلة عن سياقها الأول في نصوص النهج ، لما لِلُغةِ هذه الأخيرة من مزايا شعرية عالية جعلتها أكثر قرباً من جماليات الشعر .

ولأجل تحقيق ذلك كان على الدراسة أنْ تتخذ منهجاً مقارناً يفيد . بطريقةٍ توليفيةٍ . من معطيات المدرستين الفرنسية والأمريكية في الأدب المقارن . فجاءت عنايةُ الدراسة موزعةً . بشكلٍ متوازنٍ نوعاً ما . بين معاينة البعد الخارجي (التاريخي) لعلاقة التأثير والتأثر ما بين طرفي المقارنة ، و هو ما تؤكد المدرسة الفرنسية على دراسته و الكشف عنه في الدراسة المقارنة ، وبين تأمل تجليات العلاقة . المشار إليها . في داخل النصوص ضمن البعد الداخلي (الفني) ، والذي عنيت به المدرسة الأمريكية .

ناصر خسرو : من ملامح عصره وثقافته

يعد ناصر خسرو من أهم شعراء القرن الخامس الهجري في الأدب الفارسي ، ولد في قباديان عام ٣٩٤هـ/ ١٠٠٤م ، و نشأ فيها وسط أسرة متوسطة الحال، متثقفاً ثقافة واسعة ؛ إذ تلقى في مطلع عمره العلوم الشائعة في زمانه، و مارس الكتابة والتأليف إلى جانب الشعر . عاش في فترة اتسمت بالاضطرابات السياسية العنيفة والنزاعات الاقتصادية والعرقية والجدل الديني.[١]

سافر إلى مكة المكرمة عندما بلغ الثالثة والأربعين من عمره. و خلال رحلته الطويلة إليها مرّ بعدة مدن مكث في بعضها طويلاً ، و أدى في مكة فريضة الحج. ومن هناك استمر في رحلته، مدوّناً مشاهداته عن تلك البلدان. و كانت أطول إقامة له في القاهرة ، حيث أقام قرابة ثلاث سنوات، وفي عام٤٤١هـ غادر مصر ليزور مكة ، وبعد أدائه الحج، غادرها عائداً إلى وطنه إيران سنة ٤٤٣هـ بعد أن مرّ بعدة مدن منها البصرة التي مكث فيها شهرين ، ليغادرها . مُنهياً رحلته أخيراً . إلى بلخ وذلك سنة ٤٤٤هـ.[٢]

وفي خلال هذه الرحلة التي استغرقت زهاء سبع سنوات، واجه ناصر خسرو الكثير من الأحداث والصعاب. إلا أنَّ ما كان له الأثر البالغ في حياته هو تأثره الكبير بشخصية الخليفة الفاطميّ في مصر، حيث اعتنق المذهب الإسماعيلي . وعند عودته إلى بلخ بدأ يدعو إلى هذا المذهب بشكل علني، ويناقش فيه علماء وفقهاء عصره ويناظرهم. و اتخذ من الشعر وسيلة لذلك إلى جانب اعتماده التأليف في الموضوعات العلمية والفلسفية والدينية . وقد واجه ناصر خسرو تضييقاً واضطهاداً من قبل السلجوقيين اضطره إلى أن يتخفَّى في قلعة يمغان بالقرب من مدينة بدخشان ، ويعتزل الناس لينهمك في نظم الشعر، والتأليف، والتصنيف ، حتى وفاته سنة٤٨١هـ/١٠٨٨م.[٣]

اكتسبتْ شخصيةُ خسرو وشاعريته واهتمامه بمحيطه، أهميةً عالميةً تجاوزتْ حياتَه وعصره . و في الوقت الذي عمد بعض دارسي تجربته إلى التقليل من الأهمية الجمالية لشعره ، بسبب هيمنة الموضوعة الأخلاقية وطابع الوعظ والحكمة على كثير من قصائده ، عدّه آخرون واحداً من أعظم شعراء الأدب الفارسي الكلاسيكي ، أو شاعراً فيلسوفاً ، نظيراً لأبي العلاء المعري في الأدب العربي. وقد مارس خسرو دوراً رائداً في تطوير النثر الفارسي و أساليبه مضافاً إلى إسهاماته في مجال الفلسفة واللاهوت الإسماعيلي .

إنَّ أحدى الموضوعات المهيمنة في شعر ناصر خسرو هي وضع الإنسان ومكانته في الكون . كما أنَّ شعره الذي يرتكزُ إلى رؤيته اللاهوتية والفلسفية كان مفعماً بتأمل الطبيعة الإنسانية وقدراتها الخلاقة . فهو يعد الإنسان ذروة الخلق، والعتبة إلى العالم الآخر، على إن هذه الامتيازات . في رأيه . لم تُعفِ الإنسان من الهدف الأخلاقي لوجوده والمسؤولية عن أفعاله أمام الله ، و أمام جميع المخلوقات أيضاً؛ فالفضيلة والفكر اللذان جعلا الإنسان سيداً على الحمير هي ذاتها الخصال التي جعلت منه عبداً لله القدير.[٤] . في ضوء ذلك يمكن القول أن خسرو ، في ما كتبه من شعر ومصنفات ، كان يعيد انتاج نفسه وتصوراته ومواقفه ، ناقلاً هذه الملامح الذاتية إلى حيز الوجود الإنساني ، لغرض تفعيل دوره شاعراً وحكيماً اسماعيلياً في الحياة .

نهج البلاغة مرجعاً ابداعياً لدى خسرو

مثَّل القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ونهج البلاغة أهم أسس التكوين المعرفي والعقائدي لثقافة ناصر خسرو ؛ وحظيت هذه المصادر الثلاث بعناية خاصة لديه ، تجلت في طريقة تلقيها التي تمخضت عن استغراق تام وتسليم كامل لكل معطيات أبعادها المعرفية المختلفة ، انعكس فيما كتبه من شعر وما ألفه من كتب عديدة . ولم يكن الجو الذي وّلدته هذه المصادر ناشئاً عن الاستغراق في البعد الجمالي لألفاظها فحسب ، بل عن التدبر والتأمل العميقين في أبعادها الأخرى أيضاً، ولا يخفى عن قارئ شعر خسرو عمق لغته وخصوصيتها في تاريخ الشعر الفارسي .[٥]

لقد وفّر إتقان اللغة العربية ، والإحاطة بجماليات الكتابة بها ، للشاعر ناصر خسرو، فرصةً فائقةً لتذوق نصوص نهج البلاغة، والإفادة من خصائصها ومزاياها الفنية الكبيرة؛ فاللغة الفنية التي استخدمها الإمام علي (ع) كانت تمتاز بمستوى عالٍ من التكثيف[٦]، بشكلٍ جعل منها لغةً جماليةً محضةً، تحتشد فيها الصور التشبيهية والتمثيلية والاستعارية والرمزية والاستدلالية، ولا نكاد نجد من بين آلاف المفردات والتراكيب فيها مفردةً أو تركيباً خالياً من إيقاع ملحوظ ، فضلاً عما هو مدهش ومثير في الجانب البنائي لنصوص النهج في مختلف مستوياته .

و قد تجلت آثار قراءة ناصر خسرو المتذوقة لنصوص النهج في شعره ، الذي عُرِف بهيمنة الطابع الأخلاقي و الوعظي عليه ، إن هذا النمط المميز من العلاقة التي أنشأها الشاعر خسرو مع اللغة العربية

وثقافتها ، شكَّل حافزاً قوياً لدراسة مظهر من مظاهر هذه العلاقة ، متمثلاً بتأثر شعره بكتاب (نهج البلاغة) ، ومعاينة الكيفية التي يتحرك فيها حضور هذا المؤثر في نماذج من شعره.

تجليات التأثير

لم يكن شعر الحكمة لوناً جديداً تفرد بكتابته الشاعر ناصر خسرو وعرف به ، فقد شهد هذا اللون من الشعر ازدهاراً كبيراً منذ فترة مبكرة من تاريخ الأدب الفارسي . و قد يدخل هذا الموضوع الشعري . في رأي أحد الباحثين[٧]. مع مجمل المؤثرات العربية التي تجلَّت ملامحُها في الأدب الفارسي. وبعيداً عن الخوض في هذا الجدل الدائر حول مدى شعرية بعض المواضيع، و مقدار صلاحيتها للشعر، فإننا سننطلق من معاينة النصوص الشعرية لخسرو التي نرى فيها تأثراً واضحاً بنصوص نهج البلاغة، وفحص التحولات الطارئة على جمل الحكمة في النهج وهي تدخلُ فضاءً جديداً هو فضاء الشعر. و سنحاول أنْ نكشف عن التماثل أو التغاير الناتج عن ذلك عبر مقارنة النصين (المؤثر والمتأثر) ببعضهما.

نقرأ للشاعر مقاطعَ من قصائدَ مختلفةٍ يجمعها التأثر بنصٍ مؤثرٍ مشترك :

((هر جند تو راخوش آمد اين خانه　　باقي نشوى تواندر اين فانى

بيرون كندت خداى ازو كرجه　　بيرون نشوى تو زو به آسانى)) [٨]

وترجمته :

((و إن رُحب بك في هذا المنزل

لا تبقى في هذا الزائل

سيخرجك الرب منها و إن لم

ترغب في الخروج منها بسهولة))

وقوله :

((اين جهان معدن رنج وغم و تاريكيست　　نور و شادى وبهى نيست درين معدن)) [٩]

وترجمته :

((هذا العالم مركز الألم والغم و الظلمات

النور والبهجة ليست في هذا العالم))

وكذلك قوله :

((احول جهان كذرنده ، كذرنده ست سرما زبس كرما ، سرابس ضرا)) [١٠]

وترجمته:

((أحوال هذا العالم المتغير ، متغيرة

برد بعد الحر ، وسراء بعد الضراء))

وقوله :

((جو تو سالار دين و علم كشتى شود دنيا رهى بيش تو ناجار))[١١]

وترجمته:

((لما أصبحت سيداً في الدين والعلم

صارت الدنيا بالنسبة لك ممراً اضطرارياً))

هذه النصوص من قصائد مختلفة في الديوان ، تجتمع حول وصف الدنيا وتقلب أحوالها ، وتحذر بطريقة غير مباشرة من الركون إليها والاطمئنان لمظاهرها الخادعة، ويأتي التعبير عن ذلك في هذه النصوص وفق مستوى إبلاغي / إخباري مباشر تارة ، وغير مباشر تارة أخرى . فعلى وفق الحالة الأولى تأتي النصوص الثلاثة الأولى لتخبر بطريقة مختزلة عن حتمية الارتحال عن هذه الدنيا ، سواء أحب الإنسان ذلك أم كرهه . على أن الوعي بحقيقة الدنيا كفيل بأن يجعل الإنسان كارهاً للبقاء فيها ، غير مكترث بها ، فهي موئل الآلام والظلمات ، تتقلب أحوالها و تتبدل وجوهها من حال إلى آخر يناقضه ، أما السعادة و النور ففي الآخرة دار البقاء.

و يعمد الشاعر في النص الأخير إلى اعتماد مستوى إبلاغي غير مباشر ، من خلال بيان حال المخاطب الذي يبدو متحولاً من وضع سابق ، مسكوت عنه في النص ، ولكنه يلمح إليه ، إلى حال جديدة من التدين والمعرفة و امتلاك البصيرة النافذة ، حيث تصير الدنيا ممراً . لا مقراً . إلى حياة الآخرة .

نجد هنا (في النص الأخير) أن الشاعر لجأ إلى إضمار معنىً لم يبُح به في التعبير الأدبي ، ولكنه لم يهمله تماماً ، إذ حث المتلقي على استحضار الحال السابقة/ المضمرة للمخاطب عبر تقابل تمثيلي ما

بين المعاني، من وظائفه السعي إلى ((التأثير والإقناع ، وتقريب المعاني من الأفهام))[١٢] وقد أسهم هذا في صنع شعرية النص ، و أبعده عن المباشرة في الإبلاغ .

ويبدو واضحاً حضور نصوص النهج الكثيرة . في ذم الدنيا وتصوير أحوالها . في أبيات خسرو هذه ، من ذلك قول الإمام علي (ع) : ((عباد الله ، أوصيكم بالرفض لهذه الدنيا التاركة لكم و إن لم تحبوا تركها، ... فإنما مثلُكم ومثلها كسَفْرٍ سلكوا سبيلاً فكأنهم قد قطعوه ، و أمُّوا علماً فكأنهم قد بلغوه . وكم عسى المجري إلى الغاية أن يجري إليها حتى يبلغها))[١٣]

على أن خصوصية الإبلاغ في هذا المقطع من الخطبة (مقارناً مع أبيات خسرو) يعتمد التقابل التمثيلي من غير إضمار ، وهذا أمر عائد إلى شعور منشئ النص بضرورة البيان والإيضاح وعدم الإخفاء في الكشف عن حقيقة الدنيا ، فيؤكد الإمام على عنصر الزمن في الصورة التي يمثل بها لحال الدنيا ، ويكون مثل الناس فيها كمسافرين بلغوا نهاية الطريق ، ولم يبق لديهم وقتٌ ينفق ، أو غايةٌ يقصدونها . وقد جسد التساؤل (المجازي) في نهاية هذا الجزء معنى قصر الدنيا ونفادها بشعريةٍ عاليةٍ، وتكثيفٍ كبير .

ويمكن أن نتلمس في أبيات خسرو أيضاً أصداءَ هذه النصوص من النهج الشريف :((فكونوا أبناء الآخرة ، ولا تكونوا أبناء الدنيا ، فإن كل ولد سيلحق بأمه يوم القيامة))[١٤] ، و قوله (ع) واصفاً الدنيا: ((فهي تحفز بالفناء سكانها و تحدر بالموت جيرانها))[١٥] ، و قوله في خطبة أخرى: ((انظروا إلى الدنيا نظر الزاهدين فيها ، الصادفين عنها. فإنها والله عما قليل تزيل الثاوي الساكن ،..))[١٦]

وهكذا نجد أن هناك تماثلاً نسبياً في بعض المواضع من مستوى التعبير الأدبي ما بين المؤثر(نصوص النهج) و ما بين المتأثر (أبيات خسرو) وبشكل لا يمكن معه إلغاء خصوصية التعبيرين ، بل أن هناك بعداً آخر يتجلى في تأثير نصوص النهج في هذه الأبيات، أزعم أنه يتمثل في استحضار منشئ النص المؤثر ، كضرورة لا مفر منها ، مهما حاول قارئ أبيات خسرو التغاضي عنها ، أو حصر عنايته في مجال التركيب الداخلي للنص، و هو ما يرتبط بالمستوى الانفعالي في التعبير ، أي ما يتعلق بـ ((موقف المتكلم تجاه ما يتحدث عنه))[١٧] ، فلا يمكن تجاهل حضور صورة الإمام علي (ع) و هو يجعل من قرص الشعير اليابس والملح الجريش زاده اليومي ، وثوبه التي استحيا من راقعها كفايته من الدنيا التي طلقها ثلاثاً . و لا شك في أهمية ما يمنحه هذا الحضور للنص من قيمةٍ تعبيريةٍ إضافيةٍ توسعُ من مساحة فاعلية القيم الأخرى وتضاعفُ من تأثيرها الجمالي في المتلقي .

وكذا الأمر مع أبيات خسرو التي تستدعي صورة حياته التي عاشها في زمن التحولات السياسية والتقلبات الكبيرة ، وانفق سنوات منها في الترحال ، ومعاينة أحول الناس وثقافاتها في البلدان المختلفة، ويختمها بعزلة زاده فيها التأليف والكتابة .

و في نص آخر ، يتجلى فيه أثر حِكَم نهج البلاغة في تأمل الدنيا ، يستمر الشاعر ناصر خسرو في حشد صور الزوال كلازمة للحياة الدنيا ، بطريقة تظهر فيها ذاته واضحة ، يقول :

((غره مشو به دولت و اقبال روزكار زيراك هبا زوار همال است دولتش

دنيا به سوى من بمثل بى و فا زنى است نه شاد باش از او نه غمى شوز فرقتش)) [١٨]

وترجمته:

((لا تغتر بالسلطان و إقبال الدنيا

لأنها مقرونة بالزوال

الدنيا معي كامرأة غير وفية

لست مسروراً بالبقاء معها و لا أحزن لفراقها))

يوظف الشاعر في هذا المقطع أساليب النهي والإخبار والتمثيل في تعبير تتماهى مستوياته الإبلاغية والانفعالية والشعرية ، فهو يعلل نهيه عن الوقوع في حبائل الإغترار بالدنيا لزوال سلطانها ومباهجها ، ويقوده هذا الإخبار عن الزوال إلى صناعة صورة له ، يعتمد فيها التقابل التمثيلي ، فيجعل حالة الزوال مجسدة في صورة (امرأة / زوجة) (غير وفية / خائنة) ، تهب نفسها للجميع وهي في الوقت ذاته حرة لا يملكها أحد . وهكذا تكون حركة الدنيا/ المرأة حركة سلبية في مقابل حركة الشاعر الإيجابية في النص ، فهو يرفضها و يزهد بها ، و تغدو عديمة القيمة والتأثير لديه .

ويبدو واضحاً تأثر خسرو في معاني أبياته هنا بنصٍ من نهج البلاغة ، يعتمد في الإمام علي (ع) أسلوباً حِجاجياً قائماً على التساؤل الإنكاري التعجبي ، الموجه لمريدي الدنيا والواقعين في حبائلها ، يقول الإمام : ((ألستم في مساكن من كان قبلكم أطولَ أعماراً، و أبقى آثاراً وأبعد آمالاً ، وأعدَّ عديداً ، و أكثف جنوداً . تعبدوا للدنيا أي تعبد ، وآثروها أي إيثار. ثم ظعنوا عنها بغير زاد مبلِّغ و لا ظهر قاطع . فهل بلغكم أن الدنيا سخت لهم نفساً بفدية ، أو أعانتهم بمعونة أو أحسنت لهم صحبة))[١٩]

يضع الإمامُ المخاطبَ هنا ، أمام جملة من الحقائق التي يتغافل عن الالتفات إليها ، بطريقة يتقصى فيها صفة الزوال والفناء ، ويكرس تجلية وجوهها في واقع المخاطب و في مفردات حياته اليومية ، مستخدماً حِجاجاً تقابلياً مقارناً ، تكون فيه الحقائق شواهد ملموسة تعمل على تجسيد فكرة الزوال. ويمارس

الشاهد على الزوال في النص حضوراً فاعلاً ؛ حيث ((لا تكمن الغاية منه فقط في تعويض المجرد بالملموس ..... وإنما تكمن أساساً في تقوية الفكرة وتأكيد حضورها في الذهن))[٢٠]

يجعل المقطع المجتزأ من الخطبة هنا من صورة تعاقب الأجيال الفانية ، وبعض نماذج القوة والسطوة والسلطة وزوالها ، مجسمة ، ومتحركة أمام المتلقي ، و في ذلك ما يلبي حاجة المستوى الإبلاغي للتعبير في فن الخطبة ، على أنه ليس بخافٍ تماهي المستوى الانفعالي معه .

لقد أخضعت أبيات خسرو عناصر التأثير في نص النهج هنا إلى عملية إعادة تشكيل تعبيرية ، حيث اعتمدت الحِجَاج بالتقابل التمثيلي بدلاً عن الحِجَاج بالشاهد الحي الذي اعتمده نص النهج .

وفي نمط آخر من توظيف نصوص نهج البلاغة يعمد الشاعر إلى استخدامٍ أسلوبي يقترب من الأصل ويكاد يطابقه ، فحين يتخذ نص النهج مستوى تعبيرياً إبلاغياً ، مبرِّزاً إياه بشكل أكبر من المستويات الأخرى ، يحرص الشاعر على توظيف المستوى ذاته في التعبير الشعري . من ذلك نقرأ :

((ره سر يزدان كه داند ؟ بيمبر بيمبر سبرده است اين سر به حيدر))[٢١]

وترجمته:

((الطريق إلى الخالق مَنْ يعرفه ؟ النبي

النبي أودع ذلك السر لدى حيدر))

وقوله :

((عيبه اسرار نبى بود على روى سوى عيبه اسراركن))[٢٢]

وترجمته:

((موضع أسرار النبي كان علي

فاقصد موضع الأسرار))

وكذلك قوله في قصيدة أخرى :

((جزكه على را بس از رسول كرابود آن كه خلافت به دو رسيد ز بنياد

همجو يكى يارزى رسول كرا بود آن كه براد رش بود وبن عم و داماد))[٢٣]

وترجمته:

((غير علي من كان بعد الرسول

ذلك الذي جاءته الخلافة صاغرة))

يتجلى في هذه النصوص تأثرها الكبير بمقطع من خطبة للإمام (ع) يبين فيه منزلة أهل البيت (ع) السلام ، عامةً ، ومنزلته خاصة : ((تالله لقد علمت تبليغ الرسالات ، وإتمام العِدات، وتمام الكلمات . وعندنا أهل البيت أبواب الحكم و ضياء الأمر.))[٢٤]، وقوله (ع): ((موضع سره و لَجَأُ أمره و عيبة علمه وموئل حِكَمه ، و كهوف كتبه..))[٢٥]

على أن المستوى الشعري الذي يتماثل فيه طرفا المقارنة (المؤثر والمتأثر) يقوم على فِعلَي: الإخفاء والتلميح[*] ، ففيهما بيان إبلاغي حول معرفة أهل البيت وعلمهم و خصوصية منزلتهم من رسول الله (ص) ، يكمن خلفه معنى مضمر يحمل دلالة أقوى وأكبر تأثيراً في تحقيق الفكرة التي تريد هذه النصوص تحقيقها ، وهو معنى أحقيتهم في خلافة رسول الله (ص) ، وقد تكفلت المعاني الجزئية التي تضمنتها النصوص بالتلميح لهذا المعنى المضمر .

وفي موضع آخر نقرأ لخسرو قوله :

((جنين ياسمين وكل اندر دو عالم كجا رست جز در زمين محمد)) [٢٦]

وترجمته:

((مثل هذا الياسمين و الورد في العالمين

أين ينبت بغير أرض محمد؟))

حيث نرى تأكيداً على المعنى ذاته ، وتكريساً له ، وهو ما يجسد تأثراً بمقطع من خطبة للإمام (ع) يقول فيه: ((نحن شجرة النبوة ، ومحط الرسالة، و مختلف الملائكة ، ومعادن العلم ، وينابيع الحكم))[٢٧] ، وكذلك قوله (ع) في موضع آخر :((احتجوا بالشجرة و أضاعوا الثمرة))[٢٨]

على أن المقطع هنا يجاهر بما جاء مضمراً في النصوص السابقة عبر لغة استعارية ، أريد منها أن تحيل على دلالة عقائدية ، تتعلق بما هو أكبر من موضوع خلافة النبي (ص) . ونلاحظ توافر النصوص في طرفي المقارنة على لغة موجزة ومعان مكثفة ، وليس هذا الملمح الأسلوبي بطارئ على نصوص نهج البلاغة ، فـ ((الإيجاز واحد من المظاهر الشعرية التي تمثلت و تجسدت في نصوص النهج وعكست مظهراً شعرياً أسلوبياً من المظاهر الأسلوبية القارة في الكتاب))[٢٩]

لقد حافظت النصوص على توازن لغتها ، على الرغم من أن طبيعة الموضوع والفكرة المراد تحقيقها وإيصالها إلى المتلقي تحمل قدرة كبيرة على استثارة ملامح المستوى الانفعالي للتعبير، بشكل يكون فيه النص . فيما لو تحقق ذلك . متخماً بالتفاصيل ، ومعتمداً لغة يغلب عليها طابع الحجاج وآلياته . غير أن

المستوى الانفعالي في هذه النصوص ظل في حدود ما يحيل إليه في المدونة التاريخية ، وما فيها من تفاصيل وملامح بيئية شكلت حاضنة للنصوص .

و من نماذج التأثر الأخرى نقرأ :

((يارى ندهد ترا بر اين ديو جز طاعت و حب آل ياسين

كرد دل خود زدوستى شان بر ديو حصار ساز و برجين

در باغ شريعت بيمبر كس نيست جز آل او دهاقين)) [٣٠]

وترجمته :

((لا يعينك على هذا الشيطان

سوى الطاعة و الحب لآل ياسين

اعطف قلبك على محبتهم

حاصر هذا الشيطان و قيده

في شريعة النبي الناصعة

لا ملوك غير آله))

يعمل هذا النص على سِمتَي الإخفاء و الإلماح في المستوى الشعري للتعبير؛ فما يضمره النص هو النهي عن انتهاج الطرق المختلفة غير طريق آل النبي (ص) ، وهذا النهي يقف ظلاً للأمر الصريح بالتمسك بهم . وفي النفي الأخير من النص (لا ملوك غير آله) تلميح يكاد يخرج عن حدوده . أما إذا توقفنا عند المستوى الانفعالي للتعبير في النص فإننا لا نستطيع فصله عن انتمائه لبيئة الجدل الكلامي حول المذاهب والعقائد التي عاش فيها خسرو و كتب نصوصه تحت تأثيرها .

وفي نص النهج الذي تأثرت به أبيات خسرو نقرأ: ((فأين يتاه بكم ، بل كيف تعمهون وبينكم عترة نبيكم وهم أزمَّةُ الحق و أعلامُ الدين و ألسنة الصدق ، فأنزلوهم بأحسن منازل القرآن و رِدوهم ورود الهيم العِطاش))[٣١]

وهنا لا نجد للإضمار حضوراً ، بل على العكس فإن لغة النص صريحة، يبرز فيها المستوى الانفعالي واضحاً عبر تساؤل إنكاري متعجب ، من طرق التيه البعيدة عن طريق العترة . وواضحٌ ،أيضاً، كيف أنَّ النص الشعري في تمثُّله لمعاني نص النهج عمد إلى تفعيل المستوى الشعري معتمداً سماته ، لكي يرفع من شعرية التعبير ويعضِّد من قوة المعنى المراد إيصاله إلى المتلقي .

الخاتمة

حاولت هذه الدراسة المتواضعة أن توجه عنايتها نحو بيان علاقةٍ تثاقفيةٍ بين خطابين أدبيين مهمين ؛ هما : كتاب نهج البلاغة ، وشعر الحكيم الفارسي ناصر خسرو ، مبتدئةً من إثبات وجود هذه العلاقة بشكلٍ فعليٍّ تاريخيٍّ ، من خلال قراءة ملامح حياة الشاعر وثقافته، وصلته بالثقافة العربية ولغتها ، ثم توقفت الدراسة بشكل متأنٍ ، محاولةً فحص النماذج الشعرية التي تجلى فيها تأثيرُ حكم النهج ، وخطبه ، وما طرأ من تغييرات على هذه الحكم حين أعادتِ النصوصُ الشعريةُ انتاجَها وتمثُّلها بطريقةٍ جديدة تحمل ملامح فضائها الجديد (الشعر) .

ولعل من أهم ما انتهت إليه الدراسةُ هو الكشفُ عن حرص الشاعر خسرو على تحقيق هذا التوظيف لحِكم النهج بأداءٍ تعبيريٍّ يهيمن على كثيرٍ من نماذجه المستوى الإبلاغي ، ولا شكَّ في أنَّ السبب الذي يقفُ وراء ذلك موجهاً ، هو الغاية الوعظية والإرشادية التي تعتمدُ الحِجاج والتمثيل أساليبَ للإبلاغ وتوصيل المراد.

على أنَّ هيمنة هذا المستوى في التعبير لم يمنع من فاعلية وجود المستويات الجمالية الأخرى ، بصورة حققتْ فيها ثراءً فنياً للنصوص الشعرية ، وكان حضور حكم النهج في نصوص خسرو الشعرية ، متجاوزاً تعضيد الدلالة وإثرائها ، باتجاه حالةٍ سعى الشاعرُ إلى الدخول فيها وهي محاولة تمثَّل فضاءِ الحكم التي صاغها الإمامُ علي (ع) في مواقف خاصة وعبر تجربة حياتية كبيرة ، ليعبّر خسرو . في تأثره بهذه الحكم وتوظيفها في قصائده . عن طموح لم يتوقف عن السعي إلى تحقيقه حتى وفاته تجلى في عملٍ تبليغيٍّ وتثقيفيٍّ دؤوب لدفع الإنسانية باتجاه كمالها .

والحمد لله ربِّ العالمين .

الهوامش :.....

(١)ينظر: بركزيده قصايد ناصر خسرو: د. غلام محمد طاهري مباركه، سازمان مطالعه وتدوين كتب علوم إنساني دانشكاه (سمت) . تهران ، ١٣٨٢ ش، : ١٣

و ينظر كذلك : تاريخ أدبيات إيران : د. ذبيح الله صفا ، انتشارات فردوس ـ طهران ، ط ١٢ ، ١٣٧١هـ .ش ، ١: ٢٤٧

(٢) ينظر : سَفر نامه : ناصر خسرو علوي ، تر: د. يحيى الخشاب ، تصدير د. عبد الوهاب عزام ، الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة ، ١٩٩٣ : ٣٨ من المقدمة

وينظر كذلك: سفر نامه: ناصر خسرو (گزيده ى سخن پارسى): نادر وزين پور، انتشارات علمي وفرهنگي، طهران، ط١٢، ١٣٧٤ هـ.ش ، ص ا و ٢

(٣) ينظر : سبك خراسانى در شعر فارسى: د. محمد جعفر محجوب، ، انتشارات فردوس وجامى، تهران،١٣٤٥ هـ.ش: ٦٣ .

وينظر كذلك : الأدب الفارسي في أهم أدواره و أشهر أعلامه : محمد محمدي ، منشورات طوس . طهران ، ط٢، ١٩٩٥: ٣٤

(٤) ينظر : تاريخ أدبيات إيران: ١٥

(٥) ينظر: أثر اللغة العربية وآدابها في شعر ناصر خسرو : د. ندى حسون، مجلة جامعة دمشق ،مج ٢٦ ، ع ٤/٣ ، ٢٠١٠ : ١٢٦

(٦) ينظر: أدب الشريعة الإسلامية : د. محمود البستاني ، مؤسسة السبطين (ع) العالمية . إيران ، ط١، ١٤٢٤هـ : ١٣٧ . ١٣٨

(٧) ينظر: في الأدب المقارن دراسات في نظرية الأدب والشعر القصصي: د. محمد عبد السلام كفافي ، دار النهضة العربية . بيروت ، ط١ ، ١٩٧١ : ٥١٥

(٨) ديوان أشعار حكيم ناصر خسرو قباديانى : تصحيح : مجتبى مينوي ، مهدي محقق، دانشكاه تهران . تهران ، مؤسسه انتشارات ، ١٣٧٨ : ٥٩

(٩) الديوان : ٣٦

(١٠) الديوان:٤

(١١) الديوان:١٩

(١٢) تقابلات النص وبلاغة الخطاب، نحو تأويل تقابلي : محمد بازي ، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت ، ط١، ٢٠١٠: ٤٧

(١٣) نهج البلاغة : شرح الشيخ : محمد عبده ، مطبعة كرم ومكتبتها . دمشق، د.ت : ج١/ ١٩١

(١٤) المصدر السابق :ج١/٩٣

(١٥) المصدر السابق : ج١/١٠١

(١٦) المصدر السابق : ج١/١٩٧

(١٧) قضايا الشعرية : رومان جاكوبسون ، تر: محمد الولي ومبارك حنون ، دار توبقال للنشر ، د. ت. : ٢٨

(١٨) الديوان: ١٨٠

(١٩) نهج البلاغة : ج١/ ٢١٨ . ٢١٩

(٢٠) عندما نتواصل نغير، مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج : د. عبد السلام عشير ، أفريقيا الشرق . الدار البيضاء/ بيروت ، ٢٠٠٦ : ٩٦

(٢١) الديوان: ٣٠٨

(٢٢) الديوان :٢١٤

(٢٣) الديوان: ٣٠٢

(٢٤) نهج البلاغة :ج١/ ٢٣٣

(٢٥) المصدر السابق: ج١/ ٢٩ . ٣٠

(*) هما من عناصر تحقق المستوى الشعري في التعبير؛ الإخفاء: هو استتار المعنى خلف ظاهر الكلمات في التعبير . أما الإلماح فيتم من خلال الإشارات التي تظهر على التعبير كاشفة عن جانب من المعنى المراد نقله وإيصاله إلى المتلقي. ينظر: أنساق التداول التعبيري ، دراسة في نظم الاتصال الأدبي: د. فائز الشرع ، دار الشؤون الثقافية العامة . بغداد ، ط١ ، ٢٠٠٩ : ٣٠٨

(٢٦)الديوان : ١٢٩

(٢٧) نهج البلاغة : ج١/٢١٥ ،

(٢٨) المصدر السابق:ج١/١١٦

(٢٩) المستويات الجمالية في نهج البلاغة، دراسة في شعرية النثر : نوفل أبو رغيف، دار الشؤون الثقافية العامة . بغداد ، ط١ ، ٢٠٠٨: ١٥٨

(٣٠) الديوان: ٥٠

(٣١) نهج البلاغة : ١٥٤

مصادر البحث .....

أولاً : الكتب العربية :

١. أدب الشريعة الإسلامية : د. محمود البستاني ، مؤسسة السبطين (ع) العالمية . إيران ، ط١، ١٤٢٤هـ

٢. الأدب الفارسي في أهم أدواره و أشهر أعلامه : محمد محمدي ، منشورات طوس . طهران ، ط٢، ١٩٩٥

٣. أنساق التداول التعبيري ، دراسة في نظم الاتصال الأدبي: د. فائز الشرع ، دار الشؤون الثقافية العامة . بغداد ، ط١ ، ٢٠٠٩

٤. تقابلات النص وبلاغة الخطاب، نحو تأويل تقابلي : محمد بازي ، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت ، ط١، ٢٠١٠

٥. سَفر نامه : ناصر خسرو علوي ، تر: د. يحيى الخشاب ، تصدير د. عبد الوهاب عزام ، الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة ، ١٩٩٣

٦. عندما نتواصل نغير، مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج : د. عبد السلام عشير ، أفريقيا الشرق . الدار البيضاء/ بيروت ، ٢٠٠٦

٧. في الأدب المقارن دراسات في نظرية الأدب والشعر القصصي: د. محمد عبد السلام كفافي ، دار النهضة العربية . بيروت ، ط١ ، ١٩٧١

٨. قضايا الشعرية : رومان جاكوبسون ، تر: محمد الولي ومبارك حنون ، دار توبقال للنشر، د. ت.

٩. المستويات الجمالية في نهج البلاغة، دراسة في شعرية النثر : نوفل أبو رغيف، دار الشؤون الثقافية العامة . بغداد ، ط١ ، ٢٠٠٨

١٠. نهج البلاغة : شرح الشيخ : محمد عبده ، مطبعة كرم ومكتبتها . دمشق، د.ت

ثانيًا : الكتب الأجنبية :

١. بركزيده قصايد ناصر خسرو: د. غلام محمد طاهري مباركه، سازمان مطالعه وتدوين كتب علوم إنساني دانشكاه (سمت) . تهران ، ١٣٨٢ ش، :١٣

٢.تاريخ أدبيات إيران : د. ذبيح الله صفا ، انتشارات فردوس . طهران ، ط ١٢ ، ١٣٧١هـ .ش

٣. ديوان أشعار حكيم ناصر خسرو قبادياني : تصحيح : مجتبى مينوي ، مهدي محقق، دانشكاه تهران . تهران ، مؤسسه انتشارات ، ١٣٧٨ هـ.ش

٤. سبك خراسانى در شعر فارسى: د. محمد جعفر محجوب، ، انتشارات فردوس وجامى، تهران،١٣٤٥ هـ.ش

٥. سفر نامه: ناصر خسرو (گزيده ى سخن پارسى): نادر وزين پور، انتشارات علمي وفرهنگي، طهران، ط١٢، ١٣٧٤ هـ.ش

ثالثاً: المجلات

١. **مجلة جامعة دمشق** ،مج ٢٦ ، ع ٤/٣ ، ٢٠١٠